الجذور الاجتماعية والنفسية لظاهرة المجون والهزل في العصر العباسي:

ابن الحجاج نموذجا

الدكتور كمال لفنوني

مختبر اللغة والنص

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش

المغرب

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على ظاهرة المجون والهزل في العصر العباسي التي طغت طغيانا لا مثيل له على عهد بني بويه، والتي انعكست صورتها في الحياة الأدبية انعكاسا تاما؛ فأصبح الأدب يلون بلون ماجن خليع وهزلي، ولعل خير من احتفى بهذا النوع من الأدب في هذا العصر، الشاعر ابن الحجاج الذي كان مرآة صافية عكست ظواهر شعره؛ صور لنا الجانب اللاهي من حياة الناس عموما وحياة الأدباء خصوصا، فجاء شعره كثيرا ومتنوعا؛ منه ما قيل في الخمر والغناء، ومنه ما قيل في الغزل بالجواري والغلمان، ومنه ما قيل في وصف المقاذر والفحش. وحتى نضع القارئ في الإطار العام لظاهرة مجون ابن الحجاج وهزله في شعره، درسنا هذه القضية ارتباطا بظروف عصره الاجتماعية والاقتصادية ...، وبالأسباب الشخصية المتصلة بالشاعر في محاولة لفهم شخصيته وتقدير الفن الذي جاء به. وقد استقامت لنا خطة هذا البحث، فجعلناه في نقطتين رئيستين: دواع اجتماعية ودواع نفسية.

الكلمات المفتاح: مجون – هزل – اجتماعية – نفسية –شعر

Absract

This study aims to identify the phenomenon of immorality and farce in the Abbasid era, which dominated the era of Banu Buyeh with an unparalleled tyranny, and whose image was completely reflected in literary life. Literature became colored in a ludicrous and comic colour. Perhaps the best person to celebrate this type of literature in this era was the poet Ibn al-Hajjaj, who was a clear mirror that reflected the phenomena of his poetry. He depicted for us the fun side of people's lives in general and the lives of writers in particular. His poetry was abundant and varied. Some of it is what was said about drinking and singing, some of it was said about flirting with female slaves and boys, and some of it was said about describing filthiness and indecency. In order to place the reader in the general framework of the phenomenon of Ibn al-Hajjaj's shamelessness and sarcasm in his poetry, We studied this issue in connection with the social and economic conditions of his time... and with the personal reasons related to the poet in an attempt to understand his personality and appreciate the art he created. The plan for this research was clear to us, so we divided it into two basic points: social reasons and psychological reasons.

Keywords Indecency - humor - social – psychological -poetry

تقديم

لقد كان الناس يستسيغون شعر ابن الحجاج[1] الخليع، وكانوا يعجبون بهذا الشعر أشد الإعجاب ويطربون له كل الطرب، وكانوا يثنون أحسن الثناء على هذا الزمان الذي جاد بابن الحجاج، وكان بمثله شحيحا ضنينا. يقول الثعالبي في ابن الحجاج: " وهو وإن كان في أكثر شعره لا يستتر من العقل بسجف، ولا يبني جل قوله إلا على سخف. فإنه من سحرة الشعر، وعجائب العصر".[2] ثم يقول في صدد الكلام على شعره: " ولكنه على علاته تتفكه الفضلاء بثمار شعره، وتستملح الكبراء ببنات طبعه، وتستخف الأدباء أرواح نظمه، ويحتمل المحتشمون فرط رفثه وقذعه. ومنهم من يغلو في الميل إلى ما يضحك ويمتع من نوادره." [3]

ومما له عظيم الدلالة على شيوع فن ابن الحجاج واستساغة الناس إياه أنه" كان يمدح الملوك والأمراء، والوزراء والرؤساء، فلم يخل قصيدة فيهم من سفاتج هزله، ونتائج فحشه، وهو عندهم مقبول الجملة غالي مهر الكلام، موفور الحظ من الإكرام والإنعام ".[4]

بناء على ما سبق، فإننا لا ننكر أن تكون هناك دواع لمجون ابن الحجاج وهزله في شعره. ولذلك، فإننا نريد دراسة هذه القضية ارتباطا بظروف عصره؛ الاجتماعية والنفسية، وبالأسباب الشخصية المتصلة بالشاعر في محاولة لفهم شخصيته وتقدير الفن الذي جاء به. وقد استقامت لنا خطة هذا البحث، فجعلناه في نقطتين رئيستين، هما:

1- الدواعي الاجتماعية

ليس بالإمكان أن يعيش الأديب بمعزل عن الجماعة التي ينتمي إليها، أو يقف من الأحداث التي تلم بها موقف المتفرج. فلا بد له أن يشارك في حياتها العامة من قريب أو بعيد؛ لأنه فرد من البيئة الاجتماعية يرتبط وإياها بروابط المصلحة المشتركة، ووشائج القربى، والعيش في وطن واحد؛ فهو مضطر إلى أن يألم لألمها ويفرح لفرحها وينعم بنعيمها، ويشقى بشقائها.

ولما كان الأديب قبل كل شيء إنسانا حساسا، دقيق الحس، رقيق الشعور، يتأثر بما حوله من أحداث الحياة الاجتماعية، وينفعل بها ككل إنسان، ولكنه يختلف بعد ذلك عن غيره بأنه يستطيع الإبانة عن الأحاسيس التي تحس بها نفسه، ويختلج لها قلبه، فيتخذ من اللغة أداة للتعبير، فينظم الشعر ويكتب النثر، يتغنى بها مكتئبا ومبتهجا، ساخطا وساخرا، محتشما ومتغزلا ...

إذا، فلا عجب أن يتناول الأديب مادته من بيئته الطبيعية، ثم يضفي عليها شيئا من ذاته، حتى إذا تبلورت المعاني في ذهنه ألبسها حلية من الألفاظ فيكون الأدب ذلك الفن الذي يسجل أهواء الأمم ونزعاتها كما يسجل مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والطبيعية.

لقد كانت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي على عهد بني بويه تحيا فيها أغلبية الأمة حياة فقر و بؤس وإملاق، تظللها المحن والخطوب ويغشاها الجوع والمرض والموت. فكان من أثر ذلك أن لجأت طائفة كثيرة من المجتمع

البويهي إلى مختلف الحيل وشتى الأساليب كالتسول والكدية، فاتخذت منها وسيلة للحصول على المال، فاستمرأت هذا العيش السهل وأمعنت فيه حتى خسرت كثيرا من صفاتها الإنسانية.

وهكذا انتشرت حرفة التسول في العصر البويهي واتسع مداها بين الناس، وقد كان ينتمي إلى هذه الطائف " من هو شاعر أو من هو ملم بنوع من الثقافة كالقصص والأحاديث وما إليها. كما كان لبعضهم آراء ونظرات في الحياة تدل على أنهم كانوا يشعرون بفساد النظام الاجتماعي في عصرهم، فنقدوه نقدا لاذعا وسخروا من أهله، وبرروا سلوكهم في الحياة بأنه استجابة لها، ومجاراة لأساليبها المعكوسة ونظمها الفاسدة."[5]

وقد كان من الطبيعي أن ينمو في ظل هذا العصر الأدب الذي يصور حياة الأمة، وما كان يجري فيها. كما هو الشأن عند اب الحجاج الذي صور في شعره ما كانت الرعية عليه من تعاسة وبؤس، فنظم شعره في الكدية واحتراف التصعلك والشحاذة الأدبية، فملأ بألفاظ المكدين وأهل الشطارة ومعانيهم كقوله:(المجتث)

يا ســـادتي قـــول ميـــــتٍ في مـــثل صـــورة حـــــيّ
لم يبـق في الخـــرج شـــــيءٌ أتـــــأذنون بشـــــــيّ؟[6]

وقوله: :(المجتث)

هـــذا وأيـــام أكلـــــــي عـــند الملـوك الكـــبـارِ
ما كـــــنت أفطـــــر إلا عـــــلى كـــبود القمـــار
مشـــوية وقلايـــــــــا فالـــيوم ســـــنور داري
إذا أردات تعشّـــــــــى تنغّـــصتْ لي بفـــــــأر[7]

وقال، وقد تولى أقطاعا وخرج إليها فوجدها خربة:(السريع)

سيدي عبـــــدك في الزيت فرَّ مـــن المـــوت إلى الموت
حالي أقطـــاعي خـــرابٌ فقدْ فررت مـــن بيتـــي إلى بيتي[8]

وقال، وقد رأى كلاب عز الدولة بختيار تطعم لحوم الجدا :(الوافر)

رأيت كلاب مولانا وقوفـــــاً ورابضةً على ظهر الـــــطريقِ
فمن وردٍ له ذنبٌ طويـــــلٌ يعقّفه ومهلوب خلوقـــــي

تغذى بالجدا فوددت أنـــــــي وحق الله خركوش سلوقـــــــي

فيا مولاي رافقني بكلـــــــب لآكل كل يوم مــع رفيـــــقي

أرى القصّاب قد أضحى عــدوي لشؤم البخت والملحي صـــديقي

فلو أني افتصدت لما وجدتـــم سوى الحلتيت داخل باسليقـــي

جفاني اللحم وهو شقيق روحـــي فمن يعدي على ذاك الـشقيــق

كأن اللحم في صوم النصـــارى توهمني ابن عم الجاثليـــــــق

وأحسن ما رآه الناس لحـــــم جرايته تضاف إلى الدقيـــــق[9]

وكتب إلى بعض الرؤساء يلتمس منه عمامة: (مخلع البسيط)

يا من له معـــــجزات جـود توجب عندي له الإمـــــامه

مالي إذا ما الشـــــمال هبت قامت على رأسي القيامـــــه

ودميت في القفا عيـــــــون بالطول في موضع الحجـــامه

أظن هذا من أجـــــل أنـــي في البرد أمـــشي بلا عمامـــه[10]

وقال يطلب خيشا:

يا أحرص النـــــاس على مبعر يدق مستـــنجاه بالفيـــــش

حتى متى تتركني في لظـــــى حر حزيران بـــــلا خيـــش[11]

ونجده أيضا يشكو من جور الزمان ويتبرم بأهله حاقدا على الأوضاع الفاسدة ومبغضا لها؛ فعبر عن آلامه وأشجانه وأفصح عن سخطه ونقمته على بواعثها وأسبابها، ولم يستطع أن يكون صريحا في مواجهة الظالمين والطغاة بظلمهم خوفا من البطش والتنكيل، ولهذا تجاهل مصدر الفساد الحقيقي وكنى عنه بالزمان، فنعته بالخسة والقبح والظلم والخيانة؛ يقول: (المتقارب)

إلى كم يخاسسني دائمـــــــا زماني المقبح في عشرتـــــــي

تحيفني ظالما غاشمـــــــــا وكدربعد الصفا عيشـــــتي

وكنت تماسكـــــــت فيما مضى فقد خانني الـدهر في مسكتي[12]

وقوله: (الوافر)

عجبت من الزمان وأي شـــيء عجيب لا أراه من الزمـــــان

أتأخذ قوت جرذان عـــجاف فتجعله لأوعال سمـــــــــان[13]

وكما شكا ابن الحجاج من الزمان، كذلك شكا من النكبات والفقر والجوع وما إليها، قال في ابن العميد: (الوافر):

فذاؤك نفس عبد أنـت مولـى له يرجوك يا خير المـــــوالي

حديثي منذ عهدك بي طـويل فهل لك في الأحاديث الطوال

وجملة ما يعبره مقـــــــالي حصول استي على حر المقـالي

وأني بين قوم ليس فيهـــــم فتى ينهي إلى الملـك اختلالي

فلحمي ليس تطبخه قـدوري وحوتي ليس تقلـــيه المقـالي

ومائي قد خلت منه جبابـي وخبزي قد خلت منه سلالـي

وكيسي الفارغ المطروح خلفي بعيد العهـــد بالقطع الحـلال

أفكر في مقامي وهو صعـب وأصعب منه عن وطني ارتحالي

بي مرضان مختلفان حـــــالي العليـلة منهما تمسي بحـال

إذا عالجت هذا جف كبـدي وإن عالجت ذلك ربا طحالي [14]

وقال من أخرى: (الخفيف)

أتعشى بغير خبز، وهـــــذا خبري منذ مدة في غـــذائي

فأنا اليوم من ملائكة الـــدو لة وحدي أحيا بغير غـــذاء

آية لم تكن لموسى بن عمـــرا ن ولا غيره من الأنبيـــــــاء[15]

ثم قال في موضع آخر: (الرجز)

ما حال من يأوي إلى منـــزل أرفق منه المسجد الجـــامع

لا يرتوي العطشان فيـــــه، يلحق ما يقتاته الجائـــــع

وسوقه كاسدة بينكـــــــم لامشتر فيها ولا بائـــــع [16]

وله، وقد خرج هاربا من غرمائه:(المنسرح)

هربت من موطني إلى بلـــــد قد صفر الجوع فيه منقـــاري

يقول قوم فر الخسيـس ولـو كان فتى كان غـــــير فـرار

لا عيب لا عيب في الفرار فقد فرب نبي الهدى إلى الغـــار [17]

وكان يكتب في حداثته لرئيس، فتأخر عنه، فكتب يسأله عن حاله في تأخره فكتب إليه:(السريع)

ليست بجسمي علة تشـتكي وإنما العلة في حـــــــالي

وذاك داء لم تزل ضامـــــنا من سقمه برئي وإبـــــلالي [18]

وقال: (الخفيف)

قد قنعنا فهات خبزا بلحم أنا من شدة الخوى في السياق

فرجي أن أشم رائحة اللحـــــــــــــم ولو كان من فسا مـــراق [19]

ولما راجت الخلاعة والمجون والعبث في مختلف البيئات الاجتماعية في هذا العصر والتي تدل على تفسخ الأخلاق وفساد الذوق في الحياة الاجتماعية، بزغ نجم الشاعر ابن الحجاج في سماء هذه البيئة العامة وتأثر بظواهرها تأثرا بليغا واستجاب لها استجابة قوية؛ فكان شعره صورة صادقة ومرآة صافية لما كان في بيئته من استهتار وفحش وإقذاع؛ ذلك أن الحياة الاجتماعية العارية من الحشمة الخالية من الجد، الممعنة في السخف كانت سببا مباشرا في ظهور هذا النوع من الشعر؛ فكان شاعرا ماجنا، خليع العذار. لكن، هل كان ابن الحجاج ماجنا خليعا حقا؟ وهل كان هذا الشعر القذر يصدر عن ميل ذاتي متأصل في طبيعته؟ أم أنه كان خاضعا في ذلك لمؤثرات خارجية، تدفعه إلى النظم دفعا وتضطره إلى القول اضطرارا، وتقذف به في بحر المقاذر قذفا، دون أن يكون له في ذلك إرادة أو رأي؟

قد نبعد عن الصواب بعدا كبيرا إذا قلنا إن ابن الحجاج كان مطبوعا على المجون، كما كان أبو نواس مثلا مطبوعا عليه؛ ذلك أن أبا نواس في مجونه، كان وراءه عامل ذاتي وحافز داخلي، مصدرهما نفس الشاعر وطبيعته. أما ابن الحجاج في تعبيره عن هذا المجون، فقد كان في الدرجة الأولى متأثرا بعوامل خارجية، مصدرها الحياة

الاجتماعية، فشأنه في ذلك شأن الممثل الهزلي الذي فرضت عليه مهنته إجادة الفصول المضحكة، والفكاهات السارة على خشبة المسرح ليرضي النظارة، وليبعث فيهم البشر والانشراح، حتى إذا انتهى من عمله، وانقطعت صلته بالملعب والرواد كان أكثر الناس جدا ووقارا.

وإذن، فنحن نزعم أن هذا الشاعر كان يمثل فصولا هزلية على مسرح الحياة العامة، وكانت هذه الفصول تبعث في السامعين لذة وسرورا، فتفوز بالرضى والإعجاب منهم، لكنها كانت فصولا هزلية من نوع آخر، من نوع سخيف قذر، أوحت به طبيعة الحياة الاجتماعية لا طبيعة الشعراء؛ ذلك أن تيارها الجارف كان أقوى من أن يقاوم أو يغلب، ولهذا لم يكن لأحد منهم قبل، لأن يقف في طريقه.

وذلك كما لا يخفى – زعم يحتاج إلى دليل، والدليل –كما يبدو لنا – يمكن أن يلتمس في حياة هذا الشاعر الخاصة نفسها، كما يمكن أن يلتمس في الشعر الذي أثر عنه. فالأخبار التي رواها المعاصرون –على قلتها – تشير إلى أن ابن الحجاج كان وقورا، وكان حييا بدليل ما رواه أبو حيان التوحيدي من كلام أبي الفتح بن العميد حين خاطب ابن الحجاج قائلا:" يا أبا عبد الله، لقد والله تهت عجبا منك، فأما عجبي بك فقد تقدم، لقد كنت أفلي ديوانك، فأتمنى لقاءك، وأقول: من صاحب هذا الكلام أطيش طائش، وأخف خفيف، وأغرم غارم، وكيف يجالس من يكون في هذا الإهاب؟ وكيف يقارب من ينسلخ من ملابس الكتاب، وأصحاب الآداب؛ حتى شاهدتك الآن، فتهالكت على وقارك وسكون أطرافك، وسكوت لفظك، وتناسب حركاتك، وفرط حيائك، وناضر ماء وجهك، وتعادل كلك وبعضك، وإنك لمن عجائب خلق الله، وطرف الله، وطرف عباده؛ والله ما يصدق واحد أنك صاحب ديوانك، وأن ذلك الديوان لك، مع التنافي الذي بين شعرك وبينك في جدك ".[20]

أليس في هذا النص ما يدل دلالة صريحة على أن نفس الشاعر لم تكن هي المصدر الذي انبعث عنه هذا الشعر الخليع؟ وإلا فكيف يكون الإنسان حييا مفرطا في الحياء، وقورا مسرفا في الوقار، جادا مبالغا في الجد، ثم يصدر عنه مثل هذا المجون، وهذا الهزل، وهذا الفحش؟ إنه تناقض تام، وتناف بيّن بين ابن الحجاج الشاعر الماجن وبين ابن الحجاج الرجل الوقور الحيي الجاد.

وإذا صح ما قاله أبو الفتح بن العميد في ابن الحجاج من أنه عجيبة من عجائب خلق الله وطرفة من طرف عباده لما بينه وبين شعره من تناف وتنافر. وإذا صح كون الأدب مرآة لنفس الأديب تنعكس فيها خلجاته ومشاعره، وتتراءى فيها نزعاته وأهواؤه. نقول: إذا صح هذا كله، فكيف نفسر صدور شعر ابن الحجاج عن ابن الحجاج نفسه؟

ليس هناك من تعليل لهذه الظاهرة الأدبية غير تعليلها بأنها مرآة لمجتمع ابن الحجاج الماجن الهازل، أو تمثيل على مسرح الحياة العامة يقصد منه الربح والفائدة. ذلك أن حياة ابن الحجاج المادية كانت قائمة على بيع هذا الشعر لمن ينفق عندهم من الكبراء والفضلاء ورجال الدولة. فقد اشتغل ابن الحجاج بالشعر السخيف؛ لأنه وجده أكسب له، معترفا بأنه اتخذ الهزل والمجون وسيلة للارتزاق والعيش في هذه الحياة، وذلك حين قال: (مجزوء البسيط)

بالله يا أحمد بن عمـــــــرو تعرف للناس مثل شعـــــــري

شعر يفيض الكـــــنيف منه من جانبي خاطري ونحـــــري

نسيمه منتن المعـــــــــاني كأنه فلتـــــة بحجـــــــــر

لوجد شعري رأيـــــــت فيه كواكـــب الليل كيف تسـري

وإنما هـــزله مجـــــــــون يمشي به في المـــــعاش أمري[21]

كما أن ابن الحجاج في شعره يشير إلى أن التزامه للسخف ضرورة ملحة من ضرورات الحياة القاسية التي زال فيها الوقار والاحتشام؛ إذ لا يستطيع العاقل أن يطيق المقام فيها دون أن يمارس هذه المقاذر، ويشير في شعره أيضا إلى أنه مضطر إلى أن يملأ شعره بالهزل والمجون اضطرار؛ ليدفع به عن نفسه وماله وجاهه عادية الخصوم، ولينال به الحظوة عند الرؤساء، وذوي السلطان أيضا، وذلك حين يقول:(الوافر)

وشعري سخـــــفه لا بد منه فقد طبنا وزال الاحتـــــــشام

وهل دار تكـــون بلا كنـيف فيمكن عاقلا فيها المقـــــام [22]

وحين يقول وقد لامه أحد الرؤساء على سخفه:(مجزوء الرمل)

سيدي شكرك عنـــــدي مثل شـــــكري لإلاَهـــي

سيدي سخفي الـــذي قد صار يـــــــأتي بالدواهـــي

أنت تدري أنه يـــــــد فع عن مالي وجـــــــاهي[23]

ألا يدل هذا كله على أن ابن الحجاج كان ممثلا قد دفعته ظروف مادية قاسية ونفس منحلة ضعيفة إلى اتخاذ الشعر السخيف حرفة للارتزاق في الحياة، ووسيلة لنيل الحظوة والجاه عند ذوي السلطان؟

الأمر الذي يجعلنا نميل إلى القول إن هذا الشاعر لم يكن في شعره الماجن يصدر عن طبع أصيل، وإنما كان يصدر عن تطبع وتكلف استجابة لظروف خارجية؛ فقد كان مجونه في شعره صدى من أصداء البيئة الاجتماعية و أثرا من آثار نظامها الفاسد الذي أشرنا إليه أكثر من مرة، مما يجعل من شعر المجون في هذا العصر ظاهرة اجتماعية عامة، بينما كان في العصور السابقة ظاهرة اجتماعية مقصورة على طائفة مستهترة ضئيلة العدد قد نبذها المجتمع وأخرجها من حظيرته، وحكم على أفرادها بالمروق والخروج على تقاليده؛ كما هو الحال عند بشار بن برد وأبي نواس وغيرهما.

2 –الدواعي النفسية

لما كان المجتمع في ظل بني بويه يعاني تفسخا تاما في الأخلاق وانحطاطا عاما في الذوق، فقد ولد هذا الوضع عند ابن الحجاج لونا من الشعر الذي يبدو في ظاهره نوعا من المجون – الذي كان يتخذ أداة للتسلية و الإضحاك– وإن كان في حقيقته دلالة على رفض العصر وكل قيمه المنحرفة والسخرية من أهله. وقد كان ابن الحجاج من أبرز شعراء هذا اللون الشعري في القرن الرابع الهجري.

فلا غرابة إذن، أن نجد ابن الحجاج لا يتحرج من إظهار الكلام القبيح في المجالس العامة والخاصة، وألا يتورع من استعمال أبشع الألفاظ وأقبح المعاني فيما ينظمه من الشعر؛ من وصف العورات والسوءات والمقاذر لاسيما إذا علمنا أن ثمة صلة وثيقة بين الفكاهة والمجون؛ هذه الصلة جعلت علماء النفس يربطون بين الضحك والمسائل الجنسية والإخراجية، وذهبوا إلى أن " المضمار الأكبر الذي تستطيع فيه الفكاهة أن تصول وتجول إنما هو مضمار الوظائف الإخراجية والتناسلية."[24] و " ربما كانت اللذة الكبرى التي يجدها الناس عادة في الفكاهة الجنسية بصفة عامة إنما هي مظهر لارتياح الأفراد في بعض الأحيان لمخالفة بعض الممنوعات أو التعدي على بعض المحرمات."[25]

وإذا كان ارتباط الفكاهة بالفحش والمجون هكذا كما يصوره علم النفس ارتباطا وثيقا، فطبيعي أن نجد الفكاهات الفاحشة تنتشر في كتب الأدب انتشارا واسعا؛ حتى صار الفحش مادة أساسية للشعر الهزلي. ولعل ابن الحجاج خير مثال لذلك؛ إذ لا تخلو قصيدة من قصائده – على كثرتها –من ذكر الفضلات الإنسانية وما يتعلق بها، معبرا عنها بالألفاظ التي ينبو عنها الذوق السليم، فكان بذلك رأس مدرسة ما يميزها أنها تبحث عن كل لفظة نابية وسخيفة، وتجعلها صالحة لأن تكون في الشعر؛ إذ" إن لابن الحجاج القدرة على سبك المعاني القبيحة التي هي في غاية الفضيحة من الألفاظ الفصيحة."[26]

وسنحاول في هذا المقام أن نرصد – في ضوء نظريات علم النفس – الدواعي التي كانت من وراء اتخاذ ابن الحجاج المجون والهزل خاصيتي شعره وذلك في ارتباط دائم بظروف عصره.

إن الفكاهة أو التفكه، من الجوانب المميزة للسلوك الإنساني؛ قال الكاتب الفرنسي فرانسوا رابليه (1490م–1553م): " إن الفكاهة رسالة اجتماعية مقصود منها إنتاج الضحك أو الابتسام " [27] ؛ فهي موجودة في مظاهر حياتنا؛ لدى الأطفال ولدى الكبار، في حالات الفرح والترويح وفي حالات المشقة والأزمات النفسية. ويتمثل الرأي الغالب في العلم النفس الآن في النظر إلى الفكاهة –ومن ثم الضحك – على أنها " أحد الأساليب المواجهة التي يستعين بها الإنسان في التغلب على آلامه النفسية الخاصة، كما أنها أحد الأساليب التي تستعين بها المجتمعات في مواجهة بعض مشكلاتها السياسية والاقتصادية."[28]

ولا نعجب حين نجد ابن الحجاج يعالج آلامه النفسية بالفكاهة؛ فقد كان يرى فيها خير دواء، ويلفيها أمثل طريقة لمواجهة الغضب والعدوان واليأس والقلق، وكل الانفعالات السلبية التي قد تسيطر على الإنسان وتوقعه في براثن الاكتئاب واليأس والمرض والإهمال واللامبالاة؛ حيث كانت تناقضات الحياة تستهوي ابن الحجاج وتنعش روحه كما ينعش النبات بالماء. فالفكاهة بذلك هي قدرة المرء على أن يلاحظ ويستجيب انفعاليا للجوانب المضحكة من الأحداث، وقدرته على أن يكتشف تناقضات الواقع المحيط به.

وثمة وظائف عديدة للفكاهة حددها علماء النفس، نقتصر منها على وظيفتين متساوقتين لحديثنا في هذا الباب، هما:

- **التخفيف من وطأة القيود الاجتماعية:**" فالفكاهة صمام أمان للتعبير عن الأفكار المرتبطة بجوانب تمت أكثر من غيرها بالقيود الاجتماعية. وتتعلق هذه الجوانب – بشكل خاص–بالسلوكيات الغريزية والعدوانية والجنسية، وهي السلوكيات التي تنظمها المجتمعات على نحو أخلاقي وديني واجتماعي، وتحاول توفير السبل المناسبة للتعبير عنها."[29]

وفي ذلك يقول ابن الحجاج واصفا نفسه:(الخفيف)

حدث السـن لم يـزل يتلهـى علـمه بالمشايـخ الكبـراء
خاطر يصفع الفرزدق في الشـعـر ونحو ينـيك أم الكسـائي
غير أني أصبحت أضيع في القو م من البدر في ليـالي الشـتاء[30]

ثم قال :(السريع)

قالوا فلا تسكر فلـسنا نرى لعاقل في سـكره عـذرا
والله لولا السكر يا سـادتي ما ذقت مطبوخا ولا خمـرا
قالوا فهذا السكر ما حـده فقلت حد السكر أن أخـرا[31]

وقال في شيخ بنى بعجوز: (مجزوء البسيط)

أفصح ودعني من الرمـوز قد دخل الشـيخ بالعجوز
من لي بها حين ضاجـعته في ذلك الموضـع الحريز
فكنت أخرا عـلى زليخا وهي إلى جانـب العزيز[32]

+النقد الاجتماعي:" من خلال السخرية والفكاهة تنقد بعض المؤسسات الاجتماعية والسياسية، وبعض الشخصيات والسلوكيات، كذلك بهدف خفض التو ثر، أو تصحيح بعض الأوضاع الخاطئة، وما دام الإحباط هو أحد أهم مصادر العدوان، فإن هؤلاء الذين يحبطون الأهداف ويمنعون تحقيقها قد يكونون هم الموضوع الذي توجه إليه السخرية أو الفكاهة (رجال السياسة، القضاة، موظفو الحكومة ...) "[33].

ومن أمثلة ذلك في شعر ابن الحجاج، قوله :(الخفيف)

قيل إن الوزير قد قال شـــعرا يجمع الجهل شمـــــله ويعمه

ثم أخفاه فهو كالهر يخـــــرا في زوايا البيوت ثم يطـــــمه

ليتني كنت حاضرا حين يرويـــــــــــه فأفسوفي راحـــــتي وأشمه[34]

واتخذ دعوة كبيرة في أيام عز الدولة، ودعا إليها أقواما شتى من رجال الدولة وقال:(مجزوء الرجز)

قل للأمير المـــــــــرتجى من جاءني فقد نجـــــــا

ومن أبى فذقنـــــــــــه في عصعصي قد لججـــا

يسبح في بحر خـــــــرا إذا جرى تموجـــــــــا

وها هنا حكـــــــم إذا كوى لحاهم أنضجـــــــا

من لم يجيء فذقـــــــنه في است الذي استدعي فجا

فقل لمن لجج فـــــــي جوابه أو مجمـــــــجما

سبالك المحـــــفوف قد حرك مني مخرجـــــــــا

مؤزرا بالجعس فـــــــي جافاته مصهرجـــــــا

فيه خرا معتـــــــــق كاللبن حين كرجـــــــا

تدفعه مقعدتـــــــــي بعد العشا ملهوجـــــــا

من قبل أن تطبـــــخه طبيعة فينضجـــــــــا

من كل من ســـــرمي إلى لحيته قد التجـــــــــا

عاشرت باستي ذقـــــنه فامتزجا وازدواجـــــــــا

وصعـدا ونـــــــــز لا ودخـــلا وخرجـــــــــا

ولن ترى أحســـــن من ذقن تواخي شرجـــــــــا[35]

وقال من أخرى: (السريع)

أنظر لهرون وقد جاءنـــــي يطمع أن يبتزني ضيعـــتـــي

جذبت قوس استي في وجهه فقرطست لحيته ظرطتـــــي[36]

ومن أخرى في قائد من الأتراك أراد أخذ داره:(المديد)

إن أطفالي الذين تراهـــــــم حول ناري في الليل مثل الـفـراش

أترى ما شممت ريح فـساهم حين باكر تني وهم في الفـــراش

وجعيساتهم خلال الزوايـــا مثـل ذرق الفراخ في الأعشاش

لا ترمهم وقبل نصيحة رأيـي لك واحذر مغبة الغشـــــاش[37]

ولكي تحقق الفكاهة وظائفها، فإنها تتخذ أساليب شتى، من بينها: التهكم والسخرية والمفارقة. أما التهكم؛ فهو" الاستهزاء أو التساخف على نحو يتسم بالخشونة، وغالبا ما يحدث ذلك على نحو فج وراشح بالازدراء، ويهدف التدمير أو الحط من القدر، وتتجلى الخاصية المميزة للاستهزاء في الكلام المنطوق، وبخاصة من خلال التنغيم الصوتي لهذا الكلام بطريقة معينة."[38]

إذن،" لا بد من أن تدل نغمة الصوت في، الاستهزاء على أن شخصا معينا يهاجم شخصا آخر أو ينتقده أو يوجه إليه تعليقا ساخرا ".[39] كما يعبر عن ذلك ابن الحجاج في قوله هاجيا ابن سكرة:

سلحة بعد قرقـــــــرة من سلاح المـــــــزورة

باتت الليل كـــــــــله جوف بطني مخـــــــمرة

ثم رامت تخلـــــــصا فاغتدت ذات طـــرطرة

ثم سارت كأســـــــهم عن قسي موتـــــــر ة

فأصابت بوثـــــــبة جوف ذقن ابن ســـكرة [40]

وإلى جانب التهكم، نجد السخرية وهي شكل من أكثر أشكال الفكاهة أهمية، وهدفها عموما مهاجمة الوضع الراهن في الأخلاق والسياسة والسلوك والتفكير. وبالطبع، فإن هذا الوضع الراهن لا بد من أن يكون محصلة لممارسات عدة خاطئة سابقة، مما ينذر بأخطار ينبغي التحذير منها، ويكون الأدب الساخر أو الفن الساخر عموما إحدى علامات هذا التحذير، أو هو أحد أشكال المقاومة، أو قوة خاصة للمقاومة مع أن هذا ليس هو السائد دائما؛ فقد يستخدم هذا الشكل الخاص من الكتابة أو الفن للهجوم على المنتقدين لسلبيات الوضع الراهن أيضا".[41]

ومن مظاهر السخرية في شعر ابن الحجاج، قوله وكان قد ضمن الصدقات بسقي الفرات واستخلف على نواحي فم النيل فكتب إليه:

الحمد لله وشكرا لـــــــــه والله أهل الحمد والشـــكر

يا أيها الذئب الذي اخـترته خليفة ينظر في أمـــــري

أوصيك بالأغنام شـرا وهـل يوصي أبو جعدة بالشـــر

امش إليها مشية اللـــيث أو فاحمل عليها حملة البـــبر

ولا تدع في النيل من إثرهـــا إلا بقايا الصوف والـــبعر

انظر إلى السكباج من شمـها أو مر مجتازا على القـــدر

وكيف لا أوصي بهذا وقـــد بليت منهم ببني البـــظر

واضطرني جور زمـــاني إلى معيشة تزري علـــى الحر

والدهر قد صارت به هيضة فنحن غرقى في خـرا الدهر[42]

ونجد أيضا أسلوبا آخر من أساليب الفكاهة ألا وهو المفارقة. وهي "نظرة إلى الحياة تدرك أن الخبرة عرضة لتفسيرات شتى، لا يكون واحد منها فقط هو الصحيح وتدرك أيضا أن وجود المتنافرات والمتناقضات معا جزء من بنية الوجود."[43]

ويقول بعض النقاد:" إن لغة الشعر في جوهرها هي لغة المفارقة".[44] ويقول آخرون: "إن لغة الفن في جوهرها هي لغة المفارقة والتناقض ".[45] ولأدل على هذه المفارقة والتناقض في المعنى، والذي كثيرا ما يؤدي إلى الضحك؛ قول ابن الحجاج حين كتب إلى شخص يدعى أحمد بن ثوابه، وقد شرب دواء مسهلا:

يا أبا أحـمد بنفســي أفـــــديـــــــــك وأهلي من سائر الأســـــواء

كيف كان انحطاط جعسك في طا عة شرب الدواء يوم الـــــــدواء

كيف أمسى سبال مبعر ك الـنـذ ل غريقا في المره الصـــــــــفراء

يا أبا أحمد ونصحك عنـــــــدي واجب في الإخاء فاحفظ إخـــائي

رب ريح يوم الدواء دبـــــــور شوشت في عصاعص الأغبـــياء

قدروها فسا وقد كمن الجـــــــــــــــس لهم في مهب ذاك الفســـــاء

فإذا الفرش في خليج ســـــلاح ذائب في قوام جســـم المـــاء

فاتق الله أن تغرك ريـــــــــح عصفت في جوانب الأحشـــاء

لا تنفس خناق سرمك عنـــــه أو تخلي سبيله في الخـــــــلاء

والغذاء الغذاء فاحذر بـــأن تفـــــــــــسو فوق الفراش بعد الغـــذاء

احترس إنها نصيحة شيـــخ حنكتـه تجـــــــــارب الآراء[46]

إن ابن الحجاج في هذه المقطوعة يقلب المواضيع الجدية ويجعلها مثارا للسخرية؛ فهو عندما ينصح صديقا له شرب دواء مسهلا، فبدل أن يواسيه، ويشفق من حاله، انهال عليه بوصايا ظاهرها رحمة، وباطنها عذاب. وبذلك نشتم من قصيدته كأنه يسخر منه؛ ومن هنا تأتي المفارقة ويأتي بذلك الضحك.

ويقول أيضا ساخرا من إنسان طبري مات بمرض القولنج:

يا غصة الموت افغـــــري فاك لروح الطبـــــــري

حتى تمجيها عـــــــلى علاتها في سقـــــــــر

يأيها الثاوي الـــــــذي أفلح لو كان خـــــرى

لمثل ذا اليوم يقـــــــا ل من خرى فقد بـــرى [47]

نجد ابن الحجاج في هذه الأبيات يسخر حتى في المواقف التي تستدعي الحزن والعزاء؛ فيقلب المشهد التراجيدي إلى مشهد كوميدي كما فعل بهذا الطبري الذي مات بالقولنج؛ إذ يطلب من الموت أن تفتح فاها لتبلع روحه ثم تمجها وتلقيها في سقر.

خاتمة

كان هذا عرضا حول مجون ابن الحجاج ودواعيه الاجتماعية والنفسية، خلصنا من خل خلاله إلى جملة من النتائج مؤداها أن هذا الشاعر لم يكن في شعره الماجن يصدر عن طبع أصيل، وإنما كان يصدر عن تطبع وتكلف استجابة لظروف خارجية ؛ فقد كان مجونه في شعره صدى من أصداء البيئة الاجتماعية و أثرا من آثار نظامها الفاسد الذي أشرنا إليه أكثر من مرة، مما يجعل من شعر المجون في هذا العصر ظاهرة اجتماعية عامة، بينما كان في العصور السابقة ظاهرة اجتماعية مقصورة على طائفة مستهترة ضئيلة العدد قد نبذها المجتمع وأخرجها من حظيرته، وحكم على أفرادها بالمروق والخروج على تقاليده؛ كما هو الحال عند بشار بن برد وأبي نواس وغيرهما. كما أن مجون ابن الحجاج لم يكن سوى تنفيسا عن رغبة مكظومة أو تعبيرا عن عاطفة جائشة أو تحرر من قيود المجتمع البويهي السافر الذي ضاقت فيه نفسه من حياة عابسة مقطبة الجبين، مكفهرة المظهر؛ فاتخذ من الفكاهة والفحش لسان حاله، فتكلم عن همومه اليومية ومعاناته الصميمية أملا في الترويح عنه، وتخليصه من أعبائها.

الهوامش:

1- هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحجاج النيلي البغدادي ، أحد شعراء الشيعة الغلاة في العصر البويهي، وعبقري من عباقرة حملة العلم و الأدب فيه ،" وقد عُد من كبراء الشيعة، ومن كبار شعرائها، وآخر من فحول الكتاب" (-شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج3، ص136).

2- اليتيمة، ج3، ص : 30.

3- نفسه، ج3، ص : 30.

4- نفسه، ج 3، ص : 30.

5- الأدب في ظل بني بويه، ص : 214.

6- اليتيمة، ج 3، ص : 57.

7- نفسه ، ج 3، ص : 57.

8- نفسه ، ج 3، ص : 57.

9- نفسه ، ج 3، ص : 59.

10-نفسه، ج3، ص : 59.

11- نفسه، ج 3، ص : 61.

12- نفسه، ج 3، ص : 54.

13- نفسه، ج 3، ص : 52.

14-نفسه، ج 3، ص-ص : 53-54.

15- نفسه، ج 3، ص : 56.

16 - نفسه، ج 3، ص : 56.

17- نفسه، ج 3، ص : 49.

18-نفسه، ج 3، ص : 54.

19- نفسه، ج 3، ص : 56.

20- الإمتاع والمؤانسة، ج 1، ص : 137.

21- اليتيمة، ج 3، ص : 32.
22 - نفسه، ج 3، ص : 33.
23- نفسه، ج 3، ص : 33.
24- سيكولوجية الفكاهة والضحك، ص : 83.
25- نفسه، ص : 140.
26- شعر الفكاهة في العراق في القرن الرابع الهجري، ص :131 .
27- سلسلة عالم المعرفة : الفكاهة والضحك ، ص : 7.
28- نفسه، ص : 8.
29- نفسه، ص : 39.
30-اليتيمة، ج 3، ص : 31.
31- نفسه، ج 3، ص : 38.
32- نفسه، ج 3، ص : 37.
33- سلسة عالم المعرفة : الفكاهة والضحك ، ص : 39.
34- اليتيمة، ج 3، ص : 37.
35- نفسه، ج 3، ص : 42.
36- نفسه، ج 3، ص-ص : 42-43.
37- نفسه، ج 3، ص : 37.
38- سلسة عالم المعرفة : الفكاهة والضحك ، ص : 52.
39- نفسه، ص : 52.
40- اليتيمة، ج 3، ص : 40.
41- سلسة عالم المعرفة : الفكاهة والضحك ، ص : 52.
42- اليتيمة، ج 3، ص : 39.
43- سلسة عالم المعرفة : الفكاهة والضحك ، ص : 58.
44- نفسه، ص : 58.
45- نفسه، ص : 58
46- اليتيمة، ج 3، ص : 34.
47- نفسه، ج 3، ص : 4